نشأة الكلام

للدكتور ابراهيم انيس

منذ أحس الانسان أن له أصواتا يتخذها وسيلة للتعبير عما يجول بخلده ولاتصال أفكاره وخواطره إلى غيره من بنى جنسه وهو يسائل نفسه كيف نشأت تلك الأصوات ونمت حتى تكون منها مايسمى باللغات ! فليس عجيبا إذن أن نروى لنا فى ثنايا كتب التاريخ والأدب محاولات فى هذا الشأن لفلاسفة اليونان ثم من بعدهم بقرون عدة لمؤلفى العرب من أهل اللغة .

وتبدو المسحة الدينية أو بعبارة أدق يبدو أثر ماورد فى الكتب المقدسة فى تلك المحاولات القديمة . فقد توسع هؤلاء وهؤلاء فى تفسير آيات من التوراة والقرآن أشارة إلى نشأة اللغة الانسانية وجعلوا من تلك الآيات أساسا لنظرياتهم. ولن أعرض هنا لرأى من أسسوا نظرياتهم على أدلة نقلية مصدرها الكتب المقدسة لأن ما استندوا إليه يحتمل تأويلا وتفسيرا يمكن أن يتفق مع اتجاه العلماء فى أيامنا هذه .

ولما جاء القرن التاسع عشر شهدت البحوث اللغوية فيه عصرا زاهيا .

وكان بين تلك البحوث بل كان أكثرها تشويقا وجاذبية للنفس البحث فى النشأة اللغوية .

وليس بين البحوث اللغوية مانال من وقت العلماء وجهودهم مثل البحث فى نشأة اللغة فقد عالجه عدد كبير منهم فى مجلدات ضخمة لم تنتج لنا آخر الأمر إلا أراء قابلة لنقد كثير . وأدى هذا إلى أن كثيرا من العلماء انصرفوا عن البحث فى هـذا الموضوع .

وقبل أن أعرض إلى الاتجـاه الحديث بين علماء القرن العشرين حول هذا

نفسه وصارت كعلم له تكررت كلما تكرر العمل نفسه أو وجدت ظروف مماثلة. فاذا تصورنا أن جماعة انسانية فى عصر نشأة اللغة قتلوا حيوانا مفترسا مثلا. وفى لحظة احتفالهم بهذا النصر رددوا فى شكل جمعى اصواتا خاصة أصبحت تلك الاصوات علما على هذا الحادث تتكرر متى تكرر الحادث نفسه أو شبهه وينتقل هذا المعنى الى غير هذه الجماعة كما تنتقل معانى الكلمات الى أطفالها حين يسمعون الصوت ممن حولهم ويرون ظروفه فيربطون بين الاصوات ومدلولاتها التى فهموها مما أحاط بالعمل من ظروف. وقد يخطئون الفهم فينشأ تغيير فى الأصل ربما انتقل بالصوت الى معنى آخر أو معنى قريب منه وهكذا.

نشأت اللغة إذن كتعبيرات شبه مغناة ليست محللة إلى عناصر وقد وصفت بها حوادث خاصة. ومثل هذه التعبيرات بدأت مستقلا بعضها عن بعض وكوحدات كلامية تشبه الجمل ولكن غير كافية للتعبير عن الفكر ثم تطورت فتحللت عناصر جملها واتصلت الوحدات الكلامية بعضها ببعض ومالت اخيرا إلى الوضوح والاطراد ولكن لم تصل بعد لغة من لغات العالم الى مستوى الكمال الذى ينشده عالم اللغة. فالمثل الاعلى للغة هو تلك التى تصور نفس المعنى بنفس التعبير او مايقرب منه فى اطراد ووضوح ومع انسجام بين المعانى والاصوات وسهولة فى التعبير عن كل دقائق المعانى فى الحياة. ؟

ابراهيم أنيس
المدرس بدار العلوم

الموضوع المعقد الذى يبدو أحيانا مستحيلا أود أن أشير هنا فى اقتضاب إلى تلك النظريات المختلفة التى جاءنا بها علماء القرن التاسع عشر . ولشهرتها فى معاهدنا العلمية ، ومعرفة كثير منا بها أرى ألا أعرض لها بتفصيل أو تحليل لأنها أصبحت فى عداد النظريات التى يجب أن نذكر فقط كحلقة من حلقات تاريخ البحوث اللغوية.

وأشهر نظريات القرن التاسع عشر ثلاث :

(١) تلك النظرية التى تنادى بأن اللغة لم تكن إلا نتيجة تقليد لأصوات طبيعية صدرت عن الانسان نفسه كما سمعها الانسان من الحيوان وفى مظاهر الطبيعة .

(٢) النظرية الثانية هى تلك التى تقول إن اللغة ليست إلا نتيجة لغريزة انسانية قديمة كانت خاصة بالانسان الأول ، وتقضى هذه الغريزة بأن كل أثر خارجى له صدى صوتى يصدر عن الانسان كما يحدث من ظواهر جسمانية كامتقاع الوجه أو اضطراب القلب نتيجة آثار خارجية وبطريقة غريزية لاسلطان للانسان عليها .

(٣) وتقضى النظرية الثالثة بأن كل مجهود عضلى شديد يقوم به الانسان يخف حملة حين يتنفس المرء بشدة ويكرر تنفسه . ويتبع هذا التنفس الشديد أن الأوتار الصوتية تتذبذب وتصدر الأصوات التى تتطور فيما بعد إلى لغات .

تلك هى أهم نظريات القرن التاسع عشر فى صورة مقتضبة لأننا لم نرم هنا إلى شرحها وتحليلها فهى معروفة للكثيرين منا . والذى يمكن أن يعاب عليها جميعا هو أنها تفسر لنا نواحى محدودة للغة وتعجز عن تفسير أهم نواحى اللغات ومظاهرها . كما أنها تعطى الفرد كل الأهمية فى تكوين اللغة ولا تكاد تلمح فيها أثر المجتمع فى هذا التكوين رغم أننا نعلم أن اللغة ليست الا مظهرا اجتماعيا . وفوق هذا وذاك فأصحاب هذه النظريات فرضوا علينا أن نتصور معهم وجود مجتمع انسانى صامت فيه نشأت اللغة ! !.

لم نجد إذن تلك الوسيلة التى لجأ إليها علماء القرن التاسع عشر حين بدأوا تفكيرهم فى نشأة الكلام بطريقة قياسية ففرضوا أول الأمر وجود مجتمع انسانى ثم لعب خيالهم الخصب فى تصور نشوء لغة فى هذا المجتمع .

أما الاتجاه الحديث بين علماء اللغات فى البحث فى هذا الموضوع فهو أنهم يميلون إلى

الطريقة الاستنباطية بمعنى أنهم يبدأون البحث فى اللهجات الحديثة . ثم ماتفرعت عنه من لغات قديمة ثم الأقدم وهكذا راجعين إلى أقدم عناصر لغوية رواها لنا التاريخ فى صورة نقش من النقوش . وهم يرجون بهذا أن يستنبطوا القوانين العامة التى خضعت لها اللغات فى تطورها فى القرون التاريخية .. ومن تلك القوانين بعد التأكد من صحتها جملة وتفصيلا يمكن أن نصور لأنفسنا ما كانت عليه اللغة فى عصور ماقبل التاريخ تصويرا أقرب إلى اليقين من تلك النظريات التى ذكرتها آنفا

وهم أيضا يستعينون فى بحثهم بلغة الأطفال مع شىء من الاعتدال وبلا مغالاة فى الاعتماد عليها لأن الطفل حين يبدأ المرحلة التقليدية لأصوات من حوله يختلف كل الاختلاف عن الانسان الأول . فالطفل يقلد لغة كاملة النمو وحوله من الناس من يحسن تلك اللغة ويتكلم بها سليقة . والمحدثون يقصرون مدى انتفاعهم بلغة الطفل على تلك المناغاة التى يتسلى بها الأطفال قبل تمام السنة الأولى من سنهم أو تلك الأصوات الوجدانية غير الارادية التى تصدر من الطفل حين تلبسه بحالة انفعالية كالخوف والغضب والسرور .. الخ .

وليس بصحيح أن مراحل كسب اللغة عند الأطفال تمثل مراحل نشأتها عند الانسان الأول . فكما أن المراحل التى يمر بها الغلام فى تعلمه اللعب على « البيانو » مثلا لايعقل أنها تمثل لنا التطور التاريخى للوسيقى كذلك لايعقل أن مراحل نمو اللغة عند الطفل تمثل مراحل نموها عند الانسان الأول اللهم إلا تلك الأصوات الوجدانية التى تصدر من الطفل وليس للبيئة الاجتماعية التى تحيط به سلطان عليها .

ويستعين المحدثون كذلك بلغات الأمم الأولية فى بقاع المعمورة تلك اللغات التى من غير شك تمثل مراحل لغوية قديمة تشبه فى بعض الأحيان مراحل بعض عصور ماقبل التاريخ .

على أن العماد الأول للمحدثين هو التطور التاريخى لما نعرفه من اللغات معتمدين فى هذا على مادون فى كل العصور من آثار لغوية بما فى ذلك تلك النقوش التى عثر عليها قديما وحديثا . وهم يرجون بهذا أن يصلوا عن طريق مقارنة تلك الآثار اللغوية الى استنباط القوانين العامة التى خضعت لها اللغات فى تطورها . وتلك القوانين